تراث الإنسانية

ممثلو الإنسانية

لوالف والدو أمرسن



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

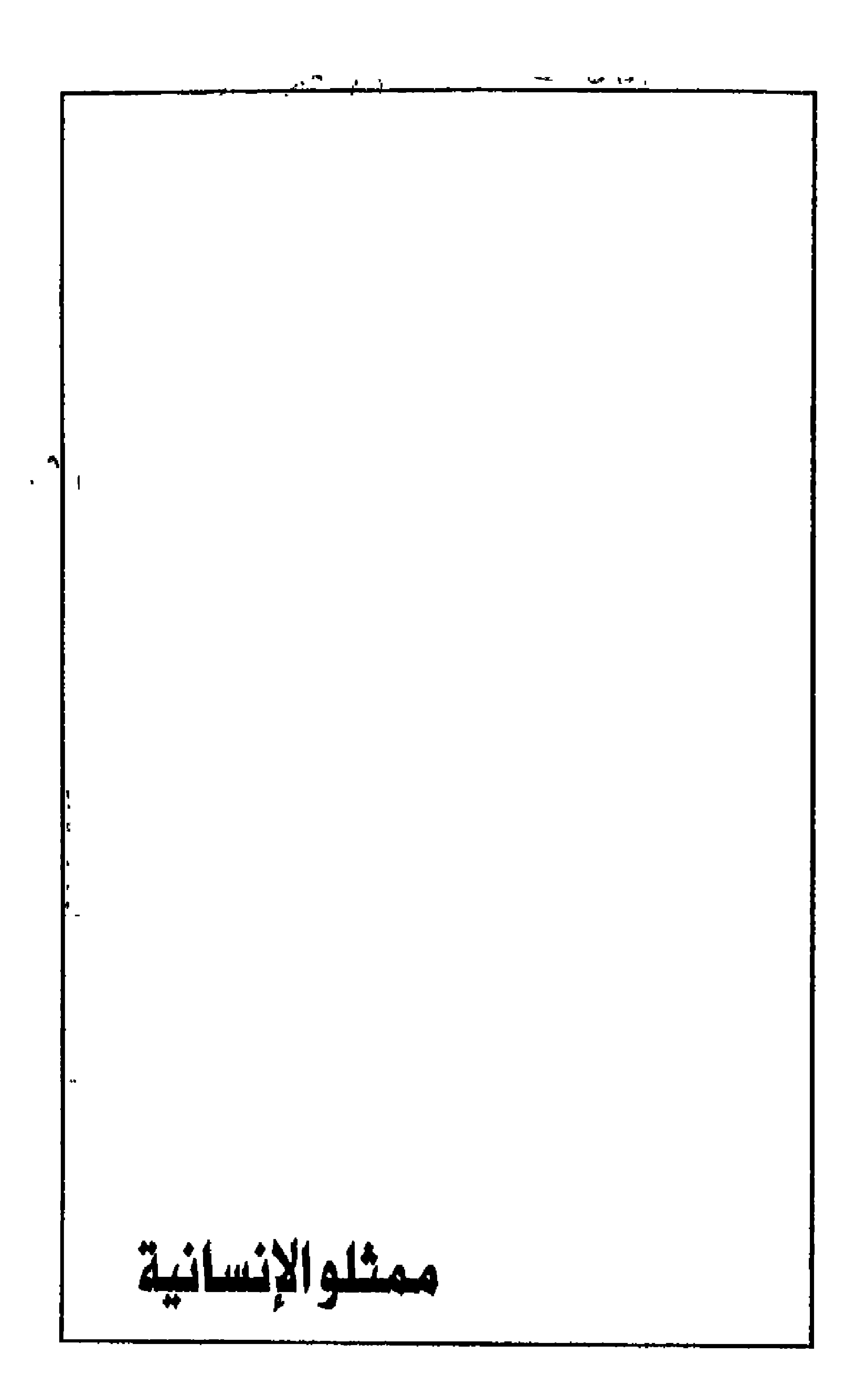
على أدهم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

إهـــــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة


ممثلو الإنسانية

ممثلو الإنسانية

لوالف والدوافرس



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
احمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

ممثلو الإنسانية

لوالف والدو أمرسن

الأستاذ على أدهم

والف والدو إمرسن فى طليعة كبار الكتاب الأمريكيين الذين وصلوا إلى ذروة المكانة الأدبية وظفروا. بالشهرة العالمية فى القرن التاسع عشر، ولا تزال كتبه مرجعاً من مراجع الأدب اللباب، والحكمة الصادقة، والآراء السديدة، والنظرات النافذة، مع علو الأداء وطرافة الأسلوب، ولم يضمن إمرسن آراءه ونظراته نسقاً فلسفياً متماسك المنطق محكم البناء، وإنما صبها فى فصول أدبية شائقة، وكتب تغلب عليها الروح الشعرية والنزعة التأملية، وليس هو عميقاً فى تفكيره فحسب وإنما هو كذلك واسع الآفاق شديد العطف على مذاهب الفكر المختلفة، عظيم التقدير لأفلاطون، وعنده أن الفلسفة هى أفلاطون وأن أفلاطون

هو الفلسفة، وأن العقل بتجريداته أعظم من المادة، وأن وحدة العقل أعظم من تعدد الحواس، ولم يكن إمرسن من هؤلاء الكتاب الذين خفيت عبقريتهم حيناً من الزمن على معاصريهم حتى جاء أحد النقاد الموهوبين ودل على مكانته وكشف سر عبقريته، فقد قدره معاصروه منذ مستهل حياته الأدبية، وهو يعد في العصر الحاضر من أساتذة الحكمة وأعلام الأدب الذين أثروا الثقافة الأمريكية ورفعوا مستواها. وقد ولد إمرسن فى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ بمدينة بوستن، وأسرته إنجليزية الأصل، ومن الأسر القديمة المحترمة المكانة، وكان أبوه وليام إمرسن من رجال الدين البارزين فى المدينة، وكان أجداده واعظين ورجال دين، وقد ترملت والدته بعد ميلاه بسنوات قلائل، واحتملت أعباء تصريف شؤون الأسرة وعناء الأزمات الاقتصادية التى استهدفت لها الأسرة مما اضطرها إلى التزام أقصى حدود تدبير الأنفاق والمحافظة على كيان الأسرة، وكانت تعينها وتشد من عزمها السيدة مارى إمرسن عمته التى كان يحبها ويجلها، وكان من مشجعيه العاطفين عليه عزرا ريلى قسيس كونكورد، وكانت مظاهر الفقر البادية فى ملبسة وملابس إخوته تدعو لداتهم فى المدرسة إلى

النظر إليهم من حالق، ولكن عمتهم مارى حولت نقمة الفقر إلى نعمة تعين على حسن التنشئة الأخلاقية وإنما القدرة على الجهاد ومغالبة الظروف القاسية، والاستعلاء على ضرورات الحياة، وقد التحق فى الوقت المناسب بجامعة هارفارد، ولم يكن مستواها حينذاك المستوى الرفيع الذى بلغته هذه الجامعة بعد ذلك العهد، قال عنها أحد رجال التربية والتعليم من الإنجليز الذين زاروا الولايات المتحدة فى هذه الفترة «يتكلم الطلبة بها الفرنسية ويدرسون التاريخ واللغة الألمانية وأشياء أخرى أكثر مما يتلقاه الطلبة فى إنجلترا،ولكن بطريقة يعتورها النقصان». وبعد أن أتم أمرسن تعليمه الجامعى أخذ يعد نفسه للاندماج فى سلك رجال الدين، وألقى مواعظ فيما بين سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٢٧ فى أمكنة مختلفة، وتم انتظامه فى سلك رجال الدين بعد سنتين، وعهد إليه في الإشراف على كنيسة الموحدين فى بوستن، وبالرغم من أن الطقوس فى كنائس طائفة الموحدين تعد معتدلة بالقياس إلى كنائس الطوائف المسيحية الأخرى فانها سرعان ما أخذت تثقل على إمرسن، ووجد أنه لا يستطيع أن يقبل رأى الكنيسة فى بعض الإجراءات المتبعة فى الطقوس الدينية التى ترى

الكنيسة ضرورة التزامها والعمل بموجبها ورأى أن فرط عناية الكنيسة بمظاهر العبادة الشكلية صارف للنفوس عن الاتجاه إلى لب الدين وإدراك جوهره الأصيل، وأن الحياة الدينية الحقة هى الحياة الصالحة، ومع شدة حرص المجمع الدينى على بقائه وثقته به وتقديره لصفاء نفسه ونزاهة خلقه وتقديمه خير الأمثلة للواعظ الصالح ورجل الدين الحق إلا أنه استكثر عليه الامعان فى هذا الاتجاه، ووجد إمرسن نفسه مضطراً إلى تقديم استقالته، وقبلت الاستقالة فى سنة ١٨٣٢، واستمر بعد ذلك يلقى مواعظ من الحين إلى الحين لبعض الطوائف الدينية خلال ست سنوات، وساورته بعض الشكوك فى جانب من اتجاهاته الدينية فى الوعظ، فأبى له إخلاصه متابعة الوعظ، وصارح أصدقاءه بأن مجال نشاطه سيكون إلقاء المحاضرات لأن ذلك لا يفرض عليه آراء معينة ولا يقيده بقيود خاصة، وكانت طريقة إلقاء المحاضرات حينذاك كشفاً جديداً فى الثقافة الأمريكية، وقد أخذ عليها فى بعض الأحايين تأثرها بطريقة الوعظ التى كانت سائدة قبل ظهورها والاهتداء إليها، وقد استطاع إمرسن بملكاته الأدبية وعبقريته الفكرية أن يرتفع بالمحاضرات إلى

مستوى رفيع لا يزال إلى اليوم مثلا يضرب وقدوة تتبع.

وفى مطلع السنة التى ترك فيها خدمة الكنيسة ببوستن توفيت زوجته الشابة، وقد احتمل هذه الصدمة صابرا متجلداً، ولكنها نالت من صحته وأثرت فى بنيته، فى ربيع سنة ١٨٣٢ اعتزم السفر إلى أوربا، وكان يرى أن الإنسان من الحين إلى الحين فى حاجة إلى لون من ألوان التغيير حتى لا تأسن موارده ولا تصدأ ملكاته، وأن السفر بوصفه علاجاً للنفس دواد ينتق الأدواء،على أنه كان فى سفره معنياً بزيارة كبار الكتاب الأوربيين الذين قرأ لهم وتأثر بهم أكثر من عنايته بمشاهدة المتاحف الآثار ومعالم الحضارة ومشاهدة الطبيعة الضخمة الرائعة،ومن مأثور أقواله فى هذا الصدد «لقد عكفت على قراءة مؤلفات هؤلاء الكتاب فى غرفة مطالعتى وأنا فى بيتى فكيف لا أسعى إلى لقائهم والتعرف عليهم وتقديم الشكر لهم ومبادلتهم الأفكار ومجاذبتهم الأحاديث» وكان يعد نفسه مديناً بوجه خاص للأديبين الإنجليزيين الكبيرين الشاعر كولردج وشاعر الطبيعة وردزورث، وعنى بأمر كاتب آخر كان يكبره بثمانى سنوات أثار اهتمامه واسترعت نظره الفصول التى كتبها فى الأدب والنقد ببعض المجلات

الإنجليزية الذائعة، وهذا الكاتب هو توماس كارلايل وأسعده الحظ فظفر بلقاء الثلاثة، وقد تحدث عن سفره وزيارته لبلاد الإنجليز ووصفه لطبائعهم وأخلاقهم ،أحوالهم الاجتماعية والأدبية فى كتاب أسماه «سمات إنجليزية» قال فى أوله «فى سنة ١٨٣٣ عند عودتى من رحلة قصيرة إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا عبرت من بولون، وهبطت لندن عند سلالم البرج.. وكنت مثل أكثر شبان ذلك العصر مدينا لرجال إدنبره ومجلة إدنبره - لجفرى وماكنتوش وهلام وسكوت وبليفير ودى كونسى، وأوحى إلى اطلاعى المحدود الخاطف بالرغبة فى رؤية وجوه ثلاثة أو أربعة من الكتاب وهم كولردج وورد دزورث ولاندور ودى كونسى وآخر الكتاب الذين أسهموا فى المجلات الموقوفة على النقد وأقواهم وهو كارلايل، وأخالنى لو كنت بحثت الأسباب التى حملتنى على زيارة أوربا حينما كنت مريضا وأشير على بالسفر لو جدت أن جاذبية هؤلاء الأشخاص كان لها المكان الأول، ولو كان جيتى لا يزال حياً فربما كنت قصدت إلى زيارة ألمانيا كذلك، وخلاف هؤلاء الذين ذكرتهم (وكان سكوت حينذاك قد توفى) لم يكن بين الأحياء فى إنجلترا من أعنى برؤيته اللهم إلا دوق ولنجتون الذى

رأيتــه بعــد ذلك فى دير وســتــمنســتــر فى جنازة ولبــرفــورس»، وقــد وصف لنا فى هذا الكتــاب زيارة لكولردج وما دار بينهمـا من أحاديث، وزيارته لتوماس كارلايل وزيارته لوردزورث، وحينما زار وردزورث كان ضمن الأسئلة التي وجهها إمرسون إليه قوله «هل قرأت الفصول الانتقادية والمترجمات التى كتبها كارلايل؟» فأجابه وردزورث إجابة عجيبة ترينا أن المعاصرين قد يتجاوزون الصواب فى تقدير بعضهم لبعض، فقد أجاب وردزورث على سؤال إمرسن قائلا «إنى أخاله فى بعض الأحيان مجنوناً» ثم حمل حملة شعواء على رواية ولیام مايستر التى تعد من بدائع الشاعر الألمانى الكبير جيتى، وقال إنه لم يستطع إتمام قراءة الجزء الأول منها وإنه بلغ به الضيق بالكتاب والنفور منه إلى حد أن ألقى به على أرضية حجرة مطالعته، ولما استعاذ إمرسن من ذلك وذكر له بعض مزايا الكتاب وعده وردزورث بأنه سيعيد قراءته مرة أخرى، وقال له عن كارلايل «إن أسلوبه غامض وإنه لا يخلوا من ذكاء وعمق ولكنه يتحدى مشاعر كل إنسان» وأسمعه وردزورث بعد ذلك بعض الأشعار التى نظمهاأخيرا، وهذا الكتاب فى مجموعه يعد إلى الآن من خير الكتب الى ألفت فى

وصف حياة إحدى الأمم من جوانبها المختلفة، ولا يزال إلى اليوم مرجعاً هاماً فى تعرف طبائع الإنجليز وأحوالهم الثقافية على الأقل من خلال القرن التاسع عشر، وقد قرأت بعد كتاب إمرسن ما كتبه عن الإنجليز بعض المؤرخين والكتاب الاجتماعيين مثل الكاتب المؤرخ جـ. ل. رينييه وكوهين بورتهايم والقس إنج فلم أجد على حداثتها ما يغنى عن قراءة كتاب إمرسن، والانطباعات التى سجلها فى هذا الكاتب انطباعات شاعر فيلسوف ومؤرخ فنان وناقد موهوب، وقد تركت زيارته لكارلايل أثرا قوياً فى نفسه، وقد أشار إلى ذلك فى قوله «فى أثناء عودتى إلى بلادى تذكرت وأنا فى البحر مسروراً حالة الفيلسوف الذى يعيش فى عزلة راقتنى يبحث عن رؤى موفورة النصيب من القداسة إلى أقصى حد فى ذلك المنتأى الصارم المبارك».

وقد خلف هو كذلك فى نفس كارلايل أبقى المؤثرات وأقواها، وتأكدت أواصر الصداقة بينهما، وتبادلا الرسائل حتى فرق بينهما الموت، وتعد هذه الصداقة الطويلة المدى من الصداقات النادرة فى التاريخ الأدبى، وبعد زيارته لكارلايل بأسبوع واحد كتب من رسالة إلى أحد أصدقائه «لقد وجدته من أكثر

الناس ببساطة وصراحة، وتم التعارف بيننا فور تلاقينا، وطوينا معاً أميالا مصعدين في التلال، وتحدثنا فى شتى الموضوعات الهامة التى تعنينا، ومتعة لقاء رجل هى فى أنه يتحدث فى صراحة وأنه يشعر بأنه غنى بنفسه،وأنه يسموا على العيب والنقصان وذلك بالإعراض عن ادعاء علم ما لا يعلم، ولا يدعى كارلايل أنه قد حل المشكلات العظيمة وراض جماحها، وإنما يصرح بأنه يرقب الحلو التى تتدم لتلك المشكلات وهى تتابع في العالم.. ومقياس التفوق عنده عكس القياس الذى ألفه الناس، فسكوت وما كنتوش وجفرى وجيبون - وحتى بيكون نفسه - من أبطاله، بل هو لا يعجب بسقراط فخر العالم اليوناني، وإنما الأبطال عنده هم برنز وصامويل جونسون وميرابو وكل من استجاب لوحى غريزته ولم يكثر من الحساب وليس فى نيتى أن أعرض موجزاً لأفكاره أعيد أحاديثه فى هذه الرسالة».

وبعد أن مر على هذا اللقاء سنتان كتب كارلايل إلى إمرسن ضمن رسالة «سنظل طويلا نذكر يوم الأحد من ذلك الخريف الذى زرتنا فيه فى كراجينيتك النائية الموحشة، ولقد غادرتنا، ولكنك لم تتركنا كما وجدتنا»، وفى نوفمبر سنة ١٨٣٨ كتبت السيدة جين ولش - زوجة

كارلايل ـ فى حاشية كتاب من زوجها لإمرسن تقول «إذا لم يكن هناك شيء يذكرنا بك فإننا لن ننسى ذلك الزائر الذى نزل علينا وكأنه هبط من السماء، وكان اليوم الذى قضاه عندنا يوماً ساحراً جعلنى أذرف الدمع لأنه لم يكن سوى يوم واحد».

وبعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذه الزيارة كتب كارلايل إلى امرسن يقول «آه يا صديقى أى حقيقة عجيبة خيالية عالمنا هذا الضخم الهائل وحياتنا! أتذكر كراجينبتك والأمسية الهادئة التى قضيناها بها؟ إن الدموع لتطفر من عينى إذا كان هذا من عادتى! ولكن هذا غير مجد».

وكانت حياة إمرسن الخارجية خالية من الحوادث الهامة، كانت حياة بسيطة هادئة بريئة من النزوات والتقلبات خالية من العواصف والأعاصير والأزمات التى تترك فى النفس ندوباً وعقداً، ففى سنة ١٨٣٤ استقر به المقام فى مدينة كونكورد القديمة موطن أجداده، وقد وصفها لنا أحد زوارها فى سنة ١٨٥٢ فقال «إنها بلدة خالية من الزخرف أقرب إلى أن تكون قرية صغيرة، وأكثر بيوتها من الخشب الأبيض الطلاء،

وأستارها من الطراز البندقي، واللون الأخضر هو اللون السائد في داخل المنازل، وبها كنيستان مشيدتان بالخشب الأبيض، وقد غرس بالبلدة بعض أشجار الدردار من النوع المتهدل الفروع والأغصان وبعض أشجار الجمين، ولكن أغلب أشجار الغابة من شجر الصنوبر الأبيض والأصفر، ويتدفق جدول صغير خلال الأرض التي أقيم عليها المنزل المتواضع الذي كان يسكنه إمرسن».

ووصف زائر آخر من زوار إمرسن منزله فقال «يوحي المنظر الخارجي للمكان الهدوء القديم وراحة العهد الخالي وحسن الضيافة، وفي داخل المنزل تبدو لوائح القدم بصورة أوضح، فالصور القديمة تطل عليك من الحيطان، وأثاث المنزل يذكرك بالاجيال السالفة. وإلى يمينك وأنت سائر إلى مكتبة إمرسن ترى حجرة واسعة مربعة بسيطة الأثاث، ولكن ما بها من أشعة الشمس والصور يسبغ عليها بهجة، والرفوف العادية الموازية للحيطان ملأى بالكتب، وينقصها الكتب الأنيقة الغلاف والغالية التجليد، ويبدو على كل مجلد في المكتبة أنه قد مضى على استعماله زمن طويل، وحجرة مطالعة السيد إمرسن حجرة هادئة في الطابق العلوي من

المنزل».

ولم يعفه القدر من ضرباته الأليمة المألوفة، فزوجته الأولى ماتت بعد زواجه بها بثلاث سنوات كانت سنوات سعيدة، وفقد ابناً له صغيراً كان قرة عينه ومسلاة نفسه، ولكنه رزق غيره من البنين، وكانت علاقاته العائلية على خير ما تكون العلاقات، وقد أعجبته صورة حياة كارلايل ورأى فيها المثل الأعلى لحياة الحكيم، ولكنه اختار لنفسه أسلوب حياة أسعد وأحكم، فلم يسرف فى مخالطة الناس، ولم يمعن فى طلب العزلة، وكان يهتم بأحواله بلدته، ويعين أهلها بالآراء السديدة والنصائح القيمة فيما يعرض من الشؤون العملية وغير العملية، وكان يقصد إليه العقلاء وغير العقلاء والشبان والشيب يلتمسون عنده النصح، ويستنيرون بآرائه ووصاياه، ويهتدون بحكمته، وكان لا يرفض مقابلة أحد، ويخاطب زواره على قدر عقولهم، وكان الكاتب الروائى الأمريكي المعروف هو ثورن جاره حيناً من الزمن فوصفه بقوله «كان من الخير أن تلقاه فى مماشى الغابة، وفى بعض الأحيان فى الطريق الذى تقوم على جانبيه الأشجار تشع من محضره الأشعة العقلية الصافية كأنه قد اكتسى حلة زهراء متألقة وهو هادئ

النفس سمح الطباع لا ادعاء فيه ولا خيلاء، يلقى كل إنسان بالبشر والإيناس متهلل الوجه كأنك تعطيه أكثر مما تأخذ منه ».

وكان من أشهر جيرانه وأبرزهم المفكر الزاهد ثورو الذى عاش سنوات فى كوخ بناه لنفسه على شاطئ غدير والدن، ولو لم يكتب هذا الرجل تجربته التي عاشها في أسلوب شائق جذاب لعده الناس ملتاث العقل، وقد قدر إمرسن طرافة حياة هذا الرجل وساعد على إذاعة أدبه « وهو الذي عاش لا ينتمي إلى حرفة ولا يتخذ مهنة وعاش وحيداً لا يذهب إلى الكنيسة ويرفض أن يدفع الضريبة للدولة ولا يأكل اللحم ولا يشرب النبيذ ولا يعرف الطباق، وليس له نزوات يقاومها ولا إغراءات يحاول السيطرة عليها ولا شهوات ولا أهواء ورفض كل ما وجه إليه من دعوات، وآثر صحبة الهنود الطيبين على معاشرة المثقفين ثقافة عالية وصرح بأنه يؤثر الذهاب إلى أوريجون على الذهاب إلى لندن».

وكان إمرسن يرى أن الدنيا تتسع للطرز المختلفة من الناس، وأن لهذا الرجل الشاذ مكانه فى ضروب البشر المختلفة المشارب والسمات النفسية، وعند

إمرسن أن اعتزال الناس خطة غير عملية، وأن الارتماء في أحضان المجتمع كذلك مضيع للفرد، وكان يحرك سفينته ببراعة بين هاتين الصخرتين.

وكان إمرسن واعظاً يؤثر فى سامعية تأثيراً بليغاً بهدوئه الوقور ونبذه أساليب الخطابة المصطنعة، الإشارات المتكلفة وتحريه البساطة والاتجاه المباشر إلى مايقصده مع خلو حديثه خلواً تاماً من الجزم القاطع والمبالغة فى التأكيد الواثق، قال عنه لويل ـ أحد شعراء الولايات المتحدة وأدبائها ونقادها البارزين ـ « لقد سمعت بعض الخطباء العظماء والمحدثين المتقتدرين المداره ولكن لم يؤثر أحد منهم فى نفسى تأثيره، لقد كان فى صوته ما يبلغ من نفوسنا مبلغاً لا تستطيع له دفعاً ولا نريد مقاومته، ولو بحثت عن البلاغة فى كتبه فربما تخطئها ولا تعثر عليها، ولكن فى خلال ذلك تشعر بأنها أشعلت أفكارك جميعها » وكان هذا هو التأثير الذى تتركه خطبه ومحاضراته أينما ذهب .

وفى سنة ١٨٣٨ ألقى محاضرة فى مدسة اللاهوت فى هارڤارد أثارت ضجة شديدة وجدلا عنيفاً، ولكنه ظل محتفظاً بهدوء نفسه واتزان طباعه وكتب إلى

أحد أصدقائه يقول له: « ليس هناك طالب علم أقل منى رغبة فى الجدل أو أضعف منى قدرة عليه،إنى لا أستطيع أن أقدم حساباً عن نفسى إذا تحدانى أحد، وأجد متعة فى أن أقول ما أفكر فيه ولكن إذا سألتنى كيف أجترئ على ذلك أو لماذا ذلك كذلك فانى أعجز عن الجواب ».

وفى السنة السابقة لذلك ألقى محاضرة عن « الأديب الأمريكى » أعجب بها كارلايل، وكتب إليه ناصحاً له بأن لا يحفل بالمدح ولا يبالى الذم والنقد، ولم يكن إمرسن فى الواقع محتاجاً إلى هذه النصيحة، فقد كان مذهبه فى الحياة أن يقول ما يعتقد سواء رضى عنه الناس أو لم يرضوا عنه .

وظهرت فى سنة ١٨٤٠ مجلة ديال (المزولة) وقد عمل على إيجادها أعضاء نادى أنصار الفلسفة المتعالية ـ الترانسندتالية ـ وهم جماعة من الشبان المقبلين على دراسة الفلسفة النظرية فى بوستن، وكانوا يعقدون اجتماعات خمس مرات فى السنة بمنزل أحد الاعضاء لبحث بعض المسائل التى يغلب عليها الطابع الدينى من وجهة نظر أكثر ميلا إلى الحرية مما كان سائداً فى

تلك الأيام، وقد تكون هذا النادى سنة ١٨٣٦ وحينما ظهرت المجلة في سنة ١٨٤٠ كان يصدر منها في السنة أربعة أعداد وقد والى إمرسن الكتابة فيها منذ ظهورها وأشرف على تحريرها في السنوات الأخيرة من حياتها وقد جعل لهذه المجلة قيمة اشتراكه في تحريرها، ولكن إذا استثنينا الفصول التي كان يكتبها إمرسن وبعض الفصول الأخرى القليلة التي ظهرت بها فان معظم ما كان ينشر بها لم يكن رفيع المستوى ولا كبير القيمة .

وفي سنة ١٨٤١ ظهرت المجموعة الأولى من فصول إمرسن، وبعد ذلك بثلاث سنوات ظهرت المجموعة الثانية من فصوله، وفي سنة ١٨٤٧ جمع الأشعار التي نظمها في ديوان، وزار إنجلترا للمرة الثانية في السنة نفسها وألقى محاضراته عن « الرجال الممثلين» وجمعها وقدمها للطبع سنة ١٨٥٠ ويقال إن كتبه لم تلق الرواج المنتظر في بادئ الأمر، ولكن الفصول التي ظهرت في سنة ١٨٦٠ بعنوان «فن الحياة » لقيت اقبالا غير مسبوق.

ونشبت الحرب الداخلية، وكان إمرسن من المعارضين في توسيع نطاق العبودية وكان يميل إلى

إلغائها إلغاء تاما،ولكنه مع ذلك لم ينضم عمليا الى العاملين على الإلغاء، ولكنه كان لا يني يردد أن اتجاهه الدائم هو تأييد القوم الصالحين، ولم تحل مبالغات المتعصبين بينه وبين إدراك ما فى قضيتهم من عدالة وما فى بواعثهم من سمو ونبالة قصد، وقد سمت الحرب الداخلية بالأخلاق القومية، وساعد ذلك على قبول رسالة إمرسن الروحية، ومثله الأخلاقية، ومنذ انتهاء الحرب الداخلية إلى حين وفاته فى سنة ١٨٨٢ كان أمرسن ملحوظ المكانة مسموع الكلمة معترفاً من الجميع بفضله وعظم تأثيره، وقد ظل إلى النهاية يواصل القراءة والاطلاع والتفكير، ويرسل الأحاديث، ويلقى المحاضرات حتى نهاية حياته، وكانت أيامه الأخيرة صافية الجو خالية من السحب مثل أيامه الباكرة، وأصاب ذاكرته القوية ضعف الشيخوخة، فكان ينسى بعض الحوادث القريبة العهدة ولكن ذكريات أصدقائه وأيامه الخوالى ظلت فى نفسه واضحة قوية يتحدث عنها فى حماسة ويصفها فى وضوح ودقة، وقد ظل محفوفاً برعاية أسرته المخلصة وعنايتها البالغة وحب جيرانه وعطفهم وتقديرهم حتى توفى يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٨٢ .

وأكثر مؤلفات إمرسن أعدت لتلقى خطباً أو محاضرات ولكل خطيب أو محاضر أسلوبه الخاص فى اجتذاب جمهوره والتأثير فى مستمعيه وتختلف بطبيعة الحال طريقة الخطيب أو المتحدث الذى يسترعى الأسماع ويلفت الأنظار عن طريقة الكاتب الذى يحاول التأثير فى قرائه، وأسلوب إمرسن وإن كان ينقصه التماسك المنطقى ملائم لاتجاهه الخطابى، ويبدو عليه طابع شخصيته وسمات تفكيره، وأدبه يدل على سعة اطلاعه، وتنوع ثقافته، وقد كان أديباً غزير المعرفة دائم الاطلاع والدراسة كما كان حكيما نافذ البصيرة قوى الحدس، ويمتاز شعره بقوة الفكرة أكثر مما يمتاز بقوة العاطفة، وشعره من ثمرات التأمل أكثر مما هو نتيجة للاحساس والشعور.

وكتابه عن « الرجال الممثلين» يعد من خير كتبه، وقد ألقاه محاضرات فى سنة ١٨٤٥ ولم يقدمه للطبع إلا فى سنة ١٨٥٠، وقد تحدث فى المحاضرة الأولى عن «فوائد الرجال العظماء» واختار فى المحاضرات التالية ستة من المشاهير عدهم ممثلى الإنسانية منهم الفيلسوف والمتصوف والمتشكك ورجل الأعمال والشاعروالكاتب، وقد تمثلت هذه الاتجاهات فى

أفلاطون وسويدنبرج ومونتين وشيكسبير ونابليون وجيتي، وقد تناول إمرسن حياة هؤلاء الرجال الممثلين الستة كاشفاً نواحي عظمتهم وامتيازهم، مشيداً بقدرتهم الفائقة التي جعلتهم بحق ممثلين للإنسانية في المجالات المختلفة، ولم يفته مع ذلك الإشارة إلى بعض نواحي ضعفهم، فهم ممثلون للإنسانية وليسوا آلهة ولا أنبياء معصومين، وجانب كبير من عظمتهم مستمد من الإنسانية التي أجادوا تمثيلها، وأفصحوا في التعبير عما في نفسها. ويقول إمرسن في المحاضرة الأولى عن فوائد الرجال العظماء « من الطبيعي أن نؤمن بعظماء الرجال ، فإذا ظهر لنا أن رفقاء طفولتنا هم الأبطال وأحوالهم الفاخرة فليس في ذلك ما يثير عجبنا والأساطير جميعها تبدأ بأنصاف الآلهة في أحوال سامية مؤاتية شعرية، أي أن عبقريتهم سائدة غلابة، وفي الأساطير التي تدور حول جوتاما يروى أن أوائل البشر أكلوا الأرض ووجدوها لذيذة الطعم حلوة المذاق، ويبدو أن الطبيعة قد وجدت من أجل البارعين وقوام العالم صدق الرجال الصالحين وهم الذين يجعلون الأرض صالحة للسكن، والذين يعيشون معهم يجدون الحياة سارة ومثمرة، والحياة لا تحلو ولا تحتمل

إلايمانا بمثل هذه الجماعة، ونحن فى الواقع أو فى الخيال والفكر نعمل على أن نعيش مع من هم أسمى منا، ونسمى أبناءنا وأرضنا بأسمائهم، وتدخل أسماؤهم فى صياغة الأفعال فى لغتنا، وأعمالهم وصورهم فى منازلنا، وفى كل مناسبة من المناسبات نذكر نادرة من نوادرهم، والبحث عن العظيم حلم شبابنا، وأهم مشاغل كهولتنا، ونحن نسافر إلى البلاد الأجنبية لنشاهد أعماله، ولنحظى بالنظر إليه إذا استطعنا ذلك.. ومعرفتنا أن فى المدينة رجلا اخترع السكة الحديدية ترفع من قيمة جميع المواطنين بها ... وديانتنا هى حب هؤلاء الأنصار وإكبار شأنهم».

ولكن العظمة فى رأى إمرسن ليست شيئاً قائماً بذاته منفصلا عن الإنسانية، ويلزم أن يكون العظيم متصلا بناوتتلقى منه حياتنا ما يعدها بالبيان والتفسير، ويقول إمرسن فى تأييد ذلك «والعظماء قريبون منا ونعرفهم حينما تقع أعيننا عليهم، وهم لا يخيبون ظننا». ويستشهد إمرسن بقول نابليون «لاتحارب على الدوام عدواً واحداً وإلا علمته كل ما تعرفه عن فن الحرب» وكذلك نحن إذا أكثرنا من الحديث مع أى إنسان راجح العقل قوى التفكير

اكتسبنا منه معرفة طريقته فى النظر إلى الأشياء العصور بأشخاص قلائل كانوا جديرين بأن يكونوا قادة أو صانعي قوانين وشرائع ، وذلك بحكم الفكرة التي يمثلونها أو اتساع مدي تلقيهم، فهم يعلموننا صفات الطبيعة الأولى، وطيطلعوننا على تكوين الأشياء.. وما يعرفونه يعرفونه من أجلنا، ومع كل عقل جديد يتجلي سر جديد من أسرار الطبيعة ولا تطوى صفحات الكتاب المقدس إلا بعد مولد آخر الرجال العظماء وما في الإنسانية من تقديس يختار هؤلاء لأسمى الأماكن ونستشهد على ذلك التماثيل والصور والنصب التذكارية التي تذكرنا عبقريتهم فى كل مدينة وكل قرية وكل منزل وكل سفينة».

ولا يقتصر إعجاب إمرسن بالعظماء على طبقة معينة منهم أو العظماء فى جانب من جوانب الحياة دون الجوانب الأخري وإنما يعجب بالعظماء فى كل ناحية من نواحي الحياة وفى كل جنس من أجناس البشرية، وهو يقول «إنى أعجب بالعظماء من جميع الطبقات، بهؤلاء الذين بدافعون عن حقائق الواقع، و هؤلاء الذين يمثلون الأفكار، وأحب منهم الصلب الخشن واللين الدمث، سوط العذاب وسيف النقمة والحبيب المدلل،

أحب قيصر الأول وشارل الخامس ملك أسبانيا وشارل الثاني عشر ملك السويد وبونابرت في فرنسا، وأثني علي كل رجل من الكفاة الذين ينهضون بأعباء وظائفهم سواء كانوا من قادة الفرق أو الوزراء أو أعضاء المجالس النيابية، ومع العظماء تصبح أفكارنا وأنماط سلوكنا عظيمة، ويكفي وجود رجل عاقل حكيم بين جماعة من الناس ليصبحوا جميعاً عقلاء حكماء، فان العدوي حينذاك سريعة، والرجال العظماء «قطرة» تزيل من عيوننا عواشي الأنانيية، وتمكننا من أن نري غرنا من الناس وأعمالهم ، والعظماء بأخلاصهم للأفكار العامة ينقذون حياتنا من الأخطاء المحلية، ويجنبوننا تلك الرتابة التي نتلقاها من المعاصرين لنا، فهم الاستثناءات والخوارج علي القاعدة التي نريدها».

علي أن فرط تقديرنا للعظيم لا يخلو من خطر، فقد تزلزل جاذبيته كياننا وتخرجنا من مستقرنا ، ولكن الذى يقينا من هذا الخطر هو إعجابنا بأبطال وعظماء آخرين يمثلون صفات جديدة وفضائل أخري تحد من إعجابنا بمزايا غيرهم من الأبطال والعظماء ومن الخير أن نقتبس من كل لون من الوان العظمة وأن نتخير من صفات البطولة فإعجابنا بمزايا غيرهم من الأبطال

والعظماء ومن الخير أن نقتبس من كل لون من الوان العظيمة وأن نتخير البطولة فإعجابنا بمزايا رجل من طراز جورج واشنطن يلطف ويطامن فرط إعجابنا بعظيم من طراز فولتير، والموازنة بين العظم ونقيضة فى لون عظمته تجعل أحكامنا متزنة.

ويوجه إمرسن نظرنا إلى مسألة جديرة بالملاحظة وقد سبقه فى الإشار إليها مكيافلى فى كتاب الأمير، وهى أن أبطال الساعة عظمتهم نسبية، وسر نجاحهم صفة فيهم كان العصر فى حاجة ماسة إليها، وبعض الساسة الذين نجحوا في عصر من عصور التاريخ لتوفر صفة فيهم لازمة للعصر لم يكن من الميسور نجاحهم فى عصر آخر ليس فى حاجة إلى توفر تلك الصفة، بل قد تكون الصفة التى تكفلت بنجاحهم فى أحد العصور علة إخفاقهم فى عصور أخرى، ويقول إمرسن تأييداً لذلك « إن الأيام الأخرى تستلزم صفات أخرى» ويمكن أن نستخلص من ذلك أن جانباً من نجاح الرجل العظيم متوقف على أحوال عصره، ويدعم إمرسن هذا الرأى بقوله «سل الرجل العظيم هل هناك ما هو أعضم منه، إن رفقته عظماء وليسوا أقل منه عظمة بل هم أكثر عظمة منه لأن المجتمع لا يستطيع أن

يرى ذلك، والطبيعة لا ترسل رجلا عظيما إلى هذا الكوكب دون أن تفضي بهذا السر إلى روح أخرى» ويمكن أن نتبيم من ذلك الفرق بين فكرة العظمة والبطول عند إمرسن وفكرة العظمة والبطولة عند كارلايل، فتاريخ العالم الحقيقى فى رأى كارلايل هو سير أبطال التاريخ وعظمائه، ولا يقر إمرسن هذه الفكرة، وقد وجد أن خير رد علي فكرة كارلايل التي بسطها فى محاضراته المشهورة عن الأبطال وعبادة البطولة هو أن يتناول الموضوع من زاوية أخرى فى محاضراته، ويوضح أن العظماء والأبطال ممثلون للإنسانية، وأن الأمم والجماعات تهيىء المجال لظهور العظيم، وتمده بأسباب النجاح والتوفيق ولكل عظيم شيعته من الحواريين الذين يستجيبون لدعوته ، ويعينونه على تبليغ رسالته، ويرون فيه خير معبر عما في نفوسهم، وأقدر نائب يستريحون إليه في النيابة عنهم، فمحاضرات إمرسن عن «الرجال الممثلين فى الواقع من قبيل النقد الصامت البناء لمحاضرات صديقه العظيم وضريبه فى الفحولة والعبقرية توماس كارلايب، وهى وجهة نظر تختلف بطبيعة الحال عن وجهة نظر نقاد التاريخ الماركسيين الذين ينتقصون من قيمة العامل الشخصى والنزعة

البطولية فى الحركة التاريخية، لأن الدوافع الاقتصادية والعوامل المادية لها فى رأيهم المكان الأول في سير التاريخ وتطوراته وأحداثه وانقلاباته.

ويقول إمرسن فى دعم وجهة نظره «إن عبقرية الإنسانية هى الموضوع الحقيقى المكتوبة سيرته فى حولياتنا، وعلينا أن نستخلص الكثير ونملأ الثغرات فى سجل التاريخ .. وعبقرية الإنسانية هى وجهة النظر الصحيحة فى التاريخ، والصفات تبقى والرجال الذين أظهروا هذه الصفات وتفاوتت أنصبتهم منها يذهبون، ولكن الصفات نفسها تبقى مرتسمة على جبين آخر.. وسنمسك عن طلب الكمال فى الرجال، ويكفينا أن نقنع بصفتهم الاجتماعية والنيابية، وقد وجد الرجال العظماء ليكونوا مدرجة لظهور رجال أعظم منهم، وعلى الإنسان أن يكبح جماح الفوضى، وأن يبذر فى كل جانب خلال حياته بذور العلم والغناء حتى يصبح الجو والغلال والحيوان والإنسان أرق حاشية وأكثر اعتدالا، وحتى تتضاعف جراثيم الحب والخير والنفع».

وينتقل إمرسن فى المحاضرة الثانية إلى الحديث عن أفلاطون الفيلسوف اليونانى الذى يعجب به اعجاباً

شديداً، ويضعه فى الرعيل الأول بين مفكرى العالم العظماء وخير نواب الإنسانية، وهو يراه مفكراً لا نظير له فى كثرة جوانبه وتنوع ملكاته ومواهبه، ومن أفلاطون قد انبثق كل ما يدور حوله التفكير الفلسفى، وعظماء المفكرين مدينون جميعهم لأفلاطون، ويضرب إمرسن لذلك مثلا رابلية وإراسماس وبرونو ولوك وروسو والفييرى وكولردج وغيرهم، وأفلاطون هو مفخرة الأنسانية فى الوقت نفسه، شينها لأنه لا السكسون وا الرومان قد استطاعوا أن يضيفوا جديداً إلى ما تركه أفلاطون، ولم يكن له زوجة ولا ولد وكل مفكرى العالم المتحضر عقبه وذريته، وقد تأثروا بتفكيره وطبعوا بطابع عقله، والفلسفة المسيحية على اختلاف طوائفها والفلسفة على تعدد مذاهبها قد أفادتا منه، وقد تجاوزت إنسانيته الحدود والأسداد حتى أصبح أستاذاً للجميع .

ولكن إمرسن مع ذلك يظل مخلصاً لفكرته عن نيابة العظماء، فأفلاطون مثل سائر العظماء قد استوعب معارف عصره، وتغذى بآدابه وفنونه وعلومه، ومن ثم رماه معاصروه بالسرقة واتهموه بالانتحال، ولكن المخترع المجدد يعرف كيف يستعير، والمجتمع يسره أن

ينسى العمال الذين ساعدوا على إقامة هذا الصرح، وتحتفظ له بعرفان الجميل كاملا، ويقول إمرسن «حينما نمتدح أفلاطون يبدو أننا نمتدح ما نقله من صولون وسوفرون وفيلولاوس، وليكن ذلك كذلك، فكل كتاب من الكتب مكون من شواهد واقتباسات، وكل منزل من المنازل مقتبس من الغابات والمناجم والمحاجر، وكل إنسان إنما هو اقتباس من أجداده السالفين جميعهم، وقد استوعب أفلاطون ما في عصره من المعرفة والعلم ـ فيلولاوس، وتيميه وبارمنيدر وغيرهم، ثم أستاذه سقراط، ووجدانه لا يزال قادراً على استيعاب مادة أخرى ـ ولم يكن لذلك مثيل في عصره ولا منذ عصره ـ فسافر إلى إيطاليا لكي يكتسب ما عنه ببثاجوراس، وارتحل إلى مصر وربما ذهب إلى نواحي أقصى في الشرق لكي يستورد العنصر الآخر الذي كان ينقص أوربا إلى العقل الأوربي، وهذا الاتساع يؤهله لأن يقف موقف الممثل للفلسفة ».

ويحدثنا إمرسن عن حياة أفلاطون فيقول «ولد أفلاطون سنة ٤٣٠ قبل الميلاد قريباً من الوقت الذي مات فيه بركلين، وكان في عصره ومدينته من أسرة نبيلة، ويقال إنه كان في نشأته ميالا إلى الحرب، ولكن

حينما لقي سقراط وهو في العشرين من عمره اقتنع بسهولة بترك هذه الخطة وظل مدة عشر سنوات تلميذاً لسقراط حتي وفاته ، وذهب بعد ذلك إلي ميجارا، وقبل دعوة ديون وديوانينزاس إلي بلاط صقلية، وذهب إلي هناك ثلاث مرات .. ثم سافر إلي إيطاليا وإلي مصر حيث مكث زمناً طويلا والبعض يقول إنه قضى ثلاثة أعوام وآخرون يقولون أنه قضى ثلاثة عشر عاماً، ويروى أنه ذهب أبعد من ذلك فزار بابل ولكن هذا غير مؤكد، ثم عاد إلي أثينا وألقى دروساً في الأكاديمية على الذين اجتذبتهم إليه شهرته، ومات وهو يكتب في الواحدة بعد الثمانين من عمره».

ويدهش إمرسن من فرط حداثة تفكير أفلاطون، وكل سمات التفكير الأوربي تلوح في كتاباته، فكيف صار أفلاطون أوربا والفلسفة والأدب في الأغلب ؟ هذه هي المشكلة!ويعلل إمرسن ذلك بأن أفلاطون كان رجلا سليما مكيناً مخلصاً حر الفكر يجمع بين احترام المثل الأعلى أو قوانين العقل ونظام الطبيعة، ومزية أفلاطون هي أنه جمع بين براعة أوربا رتفوق آسيا، ووفق بين ما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعة عند أوربا وديانة أسيا. ويستشهد في وصف جمال أسلوب أفلاطون بالقول

المأثور عن القدماء «لو هبط الإله جوبيتير الأرضى فانه لن يتكلم إلا بأسلوب أفلاطون».

واختار إمرسن العالم المتصوف السويدى سويدنبرج ليمثل الجانب الصوفى فى الإنسانية، وبدأ الحديث عنه بقوله «أعز الرجال على وآثرهم فى نفسى من بين الرجال الأعلياء ليسوا من الطبقة التى يسميها رجال الاقتصاد المنتجين، فليس فى أيديهم شئ، وهم لم يزرعوا الغلال ولم يصنعوا الخبز ولم يقوموا بعمل مستعمرة ولم يخترعوا نولا ، وفى تقدير بناة المدن والذاهبين إلى الأسواق من بنى الإنسان وحبهم أن هناك طبقة أسمى وهى الشعراء الذين يغذون الفكر والخيال بالأفكار والصور التى ترتفع بالانسان فوق عالم الغلال والمال وتعزيهم عما فى حياتهم اليومية من نقص وقصور وما فى العمل والتجارة من خسة وضعة».

ويتحدث عن نشأة سويدنبرج وأنه كان طالب علم منذ نشأته، وقد تلقى تعليمه فى أوبسالا وفى الثامنة والعشرين من عمره عين مثمناً فى إدارة المناجم، وقد اختاره لها شارل الثانى عشر ملك السويد فى ذلك العهد وفى سنة ١٧١٦ غادر بلاده مدة أربع سنوات زار

فيها جامعات إنجلترا وهولنده وفرنسا وألمانيا، وفى سنة ١٧٢١ قام بسياحة فى أوربا لكى يختبر المناجم وأعمال سبك المعادن، وشغل بعد ذلك بتأليف الكتب العلمية وطبعها، وأقبل كذلك على دراسة اللاهوت، وفى سنة ١٧٤٣ وقد بلغ الرابعة بعد الخمسين من عمره بدأت تتجلى نزعته الصوفية وترك اهتماماته العلمية الصناعية والهندسية ووقف حياته على المؤلفات الدينية التى كان يقوم بطبعها على نفقته أو نفقة بعض الأمراء، وترك وظيفته، ولكنه ظل يتقاضى مرتبه طوال حياته، وتوثقت العلاقات بينه وبين شارل الثانى عشر الذى كان يستشيره كثيراً ويقدره، وقد أكسبته قدرته العلمية وبراعته العملية ومعرفته الدينية ومواهبه الصوفية التى تجلت بعد ذلك مكانة سامية، وجعلت الملكات والأشراف والأعيان ورجال الدين يقبلون عليه، ولم يتزوج قط طوال حياته، وعرف بالتواضع الجم ورقة الحاشية وحسن الخلق، وكان يعيش على الخبز واللبن والخضروات فى منزل تحف به حديقة كبيرة، وقد زار إنجلترا مرات عدة ومات فى لندن يوم ٢٩ مارس سنة ١٧٧٢ فى الخامسة بعد الثمانين من عمره.

ويقول إمرسن « إنه ليس فى وسع إنسان فرد أن

يقدر، مزايا مؤلفاته فى مختلف الموضوعات التى تناولها، وكتبه عن المناجم والمعادن لها منزلة مرعية عند العارفين بهذه الشؤون، وهو على ما يبدو قد سبق إلى معرفته الكثير من أسرار العلم التى كشفها القرن التاسع عشر سواء فى الفلك أو الكيمياء والنظرية الذرية أو فى التشريح والمغنطيسية».

ويجرى إمرسن على طريقته فى اظهار أن العظماء ممثلون لعصورهم فيقول إن سويدنبرج ظهر فى جو حافل بالأفكار العظيمة، وقد مهد له السبيل أمثال هار فى كاشف الدورة الدموية وجلبرت الذى أظهر جاذبية الأرض وديكارت ونيوتن وغيرهم كما كان بين معاصريه امثال ليبنتز وكريستيان ولف ولوك وجروتياس ويقول إمرسن «إنه من الميسور أن ترى فى هذه العقول مناشئ دراسات سويدنبرج وإيحاءات حل المشكلات التى تناولها».

ويعرض إمرسن فى المحاضرة الرابعة لمونتين ممثل الشكوكية فى رأية، ويحدثنا إمرسن فى هذه المحاضرة عن نشأة تقديره لمونتين فيروى «أنه وجد فى مكتبة أبيه مجلداً واحداً به مجموعة من فصول مونتين

ترجمها إلى الإنجليزية كوتون، وظل الكتاب مهملا مطرحاً زمناً طويلا إلى حين خروجه من الكلية»، ولما قرأه استحضر المجلدات الباقية، فقد أعجب بفصوله واستمتع بقراءته، وعرف بعد ذلك أن ترجمة فلوريا لفصول مونتين كانت من الكتب التى اقتناها شكسبير وأن مونتين كان الكاتب الوحيد العظيم الذى قرأ فصوله الشاعر بيرون ورضى عنه وأعجب به.

ويذكر إمرسن أن مونتين حينما مات والده فى سنة ١٥٧١، وكان حينذاك فى الثامنة بعد الثلاثين من عمره أعرض عن ممارسة القانون فى بوردو واستقر به المقام فى ضيعته، وبالرغم من أنه كان من طلاب المتعة وكان فى بعض الأوقات من رجال البلاط فقد غلب عليه حبه للدراسة والمطالعة وآثر حياة الريف الحرة وعنى بضيعته وعرف فى الناحية بالاستقامة وحسن الإدراك، وكان موضع ثقة جيرانه فكانوا يأتمنونه على مجوهراتهم وأوراقهم الخاصة، ويذكر إمرسن رأى جيبون فى أن الرجلين اللذين عرفا بحرية الفكر فى ذلك العهد الذى اتسم بشدة التعصب فى المسائل الدينية كانا هنرى الرابع ومونتين.

ويرى إمرسن أن مونتين «هو أو فر الكتاب حظاً من الصراحة والأمانة، والفصول التي كتبها تتضمن كل ما خطر بباله وهجس بنفسه دون تكلف، وربما كان هناك من هو أعمق منه نظراً ولكن يستطيع الإنسان أن يقول ـ كما يرى إمرسن ـ أنه فى غزارة الأفكار منقطع النظير، وهو لا يمل قارئه ولا يخدعه وإنما يقول مايعتقده مخلصاً وعنده من العبقرية ما يجعله يحمل قارئة على أن يعنى بما يهتم به ويؤثره، وتنعكس صورة هذا الإخلاص فى جمله وأحاديثة، وفصوله أحاديث استحالت كتاباً، وهى نابضة بالحياة تدميها إذا اقتطعت منها كلمة ».

وعند إمرسن أن مونتين كان يعرف الدنيا والكتب ويعرف نفسه كذلك ويتذوق كل لحظة من لحظات حياته ويحب الألم لأنه يجعله يشعر بنفسه، وقد مات بمرض التهاب اللوزتين في الستين من عمره سنة ١٥٩٢ ميلادية.

وينتقل إمرسن من الحديث عن المتشكك مونتين إلى الشاعر العظيم وليام شكسبير نائب الشعراء فى متحفه وممثلهم فى ندوته، وقد استهل حديثه عن

شكسبير بقوله «يمتاز عظماء الرجال بالمجال والامتداد أكثر مما يمتازون بالطرافة، وإذا كنا نطلب الطرافة التى تتكون من نسج الغشاء من الأمعاء مثل العنكبوت وفى إيجاد الصلصال وعمل الآجر وبناء البيت فليس بين العظماء من رزق الطرافة، والطرافة ذات القيمة ليست متوقفة على وجود أوجه شبه بين العظماء وبين غيرهم من الناس .. وأعظم العباقرة هو أكثر المدينين من الناس، والشاعر ليس رجلا خالى الذهن يقول مايخطر على باله ولأنه يقول كل شئ فهو يقول فى نهاية الأمر شيئا جيداً، وإنما هو قلب متجاوب مع عصره وبلاده، وليس هناك شئ هوائى ولا خيالى فى إنتاجه.. وعبقرية حياتنا تغار من الأفراد ولا تريد أن يكون أى فرز عظيما إلا خلال العام، وليس للعبقرية اختيار».

وشكسبير فى رأى إمرسن مدين لجهات شتى وقد استطاع الاستفادة من كل ما وقع تحت بصره.

وقد اختص إمرسون نابليون بونابرت بالمحاضرة السادة من محاضراته عن الرجال الممثلين، باعتباره ممثلا للرجال الدنيويين، ولأنه كان فيه «فضائلهم وعيوبهم، وكان فيه قبل كل شئ روحهم وأغراضهم»

وعنده أن نابليون كان « يوقف قواه العقلية والروحية على وسائل النجاح المادى » وهو فى رأية «ليس بطلا بالمعنى السامى للكلمة، ورجل الشارع يرى فيه الصفات والقوى التى يراها فى غيره من الرجال الذين يراهم فى الشارع.. وقد استهل الحديث عنه بقوله «بين الأشخاص الاعلياء فى القرن التاسع عشر فإن نابليون أبعدهم شهرة وأقواهم، ويعزى نجاحه لإخلاصه فى التعبير عن نغمة تفكير جماعات الرجال العاملين والمثقفين ومعتقداتهم وأهدافهم - وإذا كان نابليون هو فرنسا وإذا كان نابليون هو أوربا فذلك لأن القوم الذين كان يحركهم ويسيطر عليهم كان كل فرد منهم نابليون الصغير» ونلمح فى هذا الرأى فكرة إمرسن الأصلية وهى أن سر نجاح نابليون أنه وجد صدى لنوازعه واتجاهاته فى نفوس معاصرية، ولذلك عده « نائباً عنهم».

ويقول إمرسن «كان نابليون معبود الناس العاديين لأنه كان فيه بصورة فائقة صفات الناس العاديين وقدراتهم» ويمضى فى وصفه قائلا «كان نابليون رجلا يعرف فى كل لحظة وفى كل طارىء ماذا يعمل ومعظم الناس يعيشون من اليد إلى الفم بلا خطة مرسومة، ومن

أقـــوال نابليـــون إن الحــــوادث العـــارضـــة بحب ألا تسيطرعلى سياستنا، وإنما السياسة هى التى تسيطر على الحوادث ولم يكن نابليون ميالا إلى سفك الدماء ولا قاسياً فظاً غليظ القلب، ولكن الويل لمن كان يقف فى طريقه، وهو لا يرى سوى هدفه، وأما العقبة فيجب أن تزول، ولم يكن هجومه من وحى الشجاعة وإنما كان نتيجة الحساب والتقدير».

ويشتد إمرسن فى نقده لنابليون فيقول عنه «كان بونابرت مجرداً من العواطف الكريمة بشكل غير عادى وبالرغم من المكانة السامية التى بلغها لم يكن فيه مزية الصدق ولا الأمانة، وقد كان يجور على قواده، ويعزو أعمالهم الباهرة إلى نفسه، وكان كذوباً مسرفاً فى الكذب، وقد جلس فى شيخوخته بالجزيرة المنعزلة ـ سانت هيلانة ـ ليزيف الوقائع والتواريخ، ومن أقواله « لابد أن أبهر الناس وأروعهم » وكان غرضه الأعظم إثارة الضجة حول نفسه، ومن أقواله فى ذلك، « الشهرة العظيمة هى الضجة المدوية، وكلما كانت الضجة أعظم صخباً كان صوتها أبعد وأسير، وقد تزول القوانين والنظم والآثار، ولكن الضجة تبقى ويرن صداها فى العصور التالية» وعنده أن الرغبة والرهبة

هما اللتان تحركان الناس، وأن الصداقة ليست سوى اسم، وقد صرح بأنه لايحب أحداً حتى إخوته، وكان لا يعرف التردد فكان يسرق ويفترى ويقتل ويغرق ويدس السم حسبما تملى عليه مصلحته، ولم يكن كريم النفس نبيل الأخلاق، وإنما كان شديد الأثرة، وكان خائناً غادراً ميالا إلى الاغتياب والخوض فى القيل والقال».

ومن أقول نابليون عن نفسه التى رواها إمرسن إنه كان يسمى نفسه «ابن القدر» ومن أقواله «إنهم يتهمونني بارتكاب الجرائم الكبيرة ولكن الرجال من طرازى لا يرتكبون جرائم، ولم يكن هناك شئ أسهل من ارتفاع شأني وسمو منزلتى، ومن العبث أن ينسب ذلك إلى الدسيسة أو الجريمة، وإنما مرجعه إلى خصائص العصر وإلى شهرتى فى إجادة الحرب ضد أعداء بلادى، ولقد كنت دائماً أتجه مع آراء الجماعات وسير الحوادث فماذا تصنع لى الجرائم؟» . ومن عجيب أقواله قوله فى الحديث عن ابنه «إن ابنى لا يستطيع أن يحل محلى، وأنا نفسى لا أستطيع أن أستبدل مكانى، إنى مخلوق الظروف».

ويعلل إمرسن نجاح نابليون بالصلة القوية بين

نفسه وبين جماعات الناس فى عصره ويقول « كانت قوة نابليون الحقيقية قائمة على اعتقاد الجماعات أنه يمثلها في عبقريته وأهدافه، وأنه لا يمثلها حينما يخطب ودها ويعمل على مرضاتها فحسب بل كذلك حينما يسيطر ويحكم وحتى حينما يعرضها للهلاك باجبارها على الالتحاق بالجيش.

ويختم إمرسن كتابه بمحاضرته عن «جيتى» أو «الكاتب» بوصف جيتى ممثلا للكتاب، ويقول إمرسن فى هذا الفصل «إن الإنســان يحب أن ينقل مـا فى نفسه، والذى يود أن يقوله يظل حملا ثقيلا على قلبه حتى يعبر عنه ويفضى به، ولكن علاوة على متعة الحديث فإن بعض الناس قد ولدوا وعندهم قوة أسمى وهى القدرة على الخلق الثانى - (أى الكتابة) » وينقل إمرسن تأييداً لذلك قول جيتى عن نفسه «لقد وهبنى الله القدرة على أن أصور ما أعانيه».

ويقول إمرسن «لقد وصفت نابليون باعتباره ممثلا لحياة القرن التاسع عشر العادية الخارجية وأهدافه التى كان يتحراها، وشاعر هذا القرن ونصفه الآخر جيتى وهو رجل ألف هذا القرن، واستنشق هواءه

واستمتع بثمراته، ولم يكن من الميسور وجوده فى زمن مبكر، وقد ظهر فى وقت كانت الثقافة قد اتسع مداهاوقللت من حدة السمات الفردية» ويمضى فى حديثه عن جيتى قائلا «والعجيب من أمره أنه عاش فى مدينة صغيرة وفى ظل دولة ضئيلة مهزومة، وفى زمن لم تلعب فيه ألمانيا دوراً رئيسياً فى الأحوال العالمية بحيث يحرك الكبرياء فى نفوس أبنائها، ومع ذلك لا أثر للاقليمية فى إيحاءات خياله وبنات شعره. . ولقد ولد وله عبقرية حرة مسيطرة».

ويتحدث عن الجزء الثانى من رواية فاوست التى نظمها جيتى، قائلا « هيلينا أو الجزء الثانى من فاوست هى فلسفة الأدب مفرغة فى القالب الشعرى، وهى عمل إنسان وجد نفسه متمكناً من التاريخ والأساطير والفلسفات والعلوم والآداب القومية فى الصورة التى يسرتها المعلومات الانسيكلوبيدية التى أمكن جمعها فى العصر الحديث عن طريق الاختلاط الأممى بين سكان الكرة الأرضية وعلم الفلك وطبقات الأرض والكمياء»

ويشير الى رواية وليام مايستر بقوله «وليام مايستر رواية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وهى أول

رواية من نوعها، وقد وصفها المعجبون بها بأنها الوصف الوحيد للمجتمع الحديث ـ كأن الروايات الأخرى، مثلا روايات ولترسكوت، كانت تتناول الأزياء والأحوال، أما هذه الرواية فأنها تناولت صميم الحياة .. وكل من رزق حسن الفهم قرأ هذه الرواية فى سرور ودهشة، وقد فضلها بعضهم على رواية هملت باعتبارها عملا عبقرياً، ولا أظن كتاباً من الكتب التى ظهرت فى هذا القرن يمكن أن يقوم لها أو يوازن بها فى عذوبتها المستحبه وجدتها وإثارتها للفكر، وهى حافلة بالأفكار الجدية، والنظرات النافذة إلى صميم الحياة والعادات والأخلاق .. هى خالية من البلاغة المتكلفة والاملال البغيض.. والذين يحبون القراءة السهلة وينتظرون التسلية التى يجدونها فى الروايات سيخيب فيها ظنهم» والمعروف أن رواية وليام مايسترلم تجد فى بادئ الأمر إقبالا على قراءتها وتقدير مزاياها من قراء الأدب الإنجليزى، ويقول إمرسن فى تعليل ذلك « بطل رواية جيتى فيه الكثير من نواحى الضعف والنقائص ويخالط جماعة من أهل السوء ، وقد ضاق جمهور القراء الإنجليز بذلك واجتوى الرواية، ولكنها مع ذلك حافلة بالحكمة ومعرفة الدنيا، وتصويرها للشخصيات صادق

محكم وبلمسات قليلة، وليس فيها كلمة أكثر مما يلزم، وما يزال الكتاب جديداً لم يستنفذما به.. ولا يزال ينتظر ملايين القراء ليفيدوا منه».

ويروى لنا إمرسن أن الشاعر الألماني الصوفى النزعة نوفاليس لم يعجبه الكتاب بعد القراءة الأولى، ولكنه بعد أن أعاد قراءته ووقف على مضامينه ظل كتابه الأثير إلى نهاية حياته .

ويرى إمرسن أن جيتى ونابليون كانا يمثلان ثورة عصرهما على التقاليد البالية ، وأنهما كانا واقعيين ثائرين على الأوضاع المبتذلة، وكل منهما يستمد من نبعه الخاص ويعتمد على نفسه، وقد عملا على إقناع أهل عصرهما أن الدنيا لم تبلغ بعد مرحلة الهرم وأن فرصة التجديد والانطلاق لا تزال موجودة، وأن كل عصر يستطيع أن يكتب إليادته التى يصف فيها مخاطراته وروائع أعماله دون أن يكتفى بالإشادة بأمجاد القدماء والخضوع لأحكامهم وهما يعدان من هذه الناحية فى طليعة المجددين.

ولا نزاع فى أن إمرسن قد استعان فى تقديره لأبطاله النواب بوجهة نظر كارلايل التى بسطها فى كتابه

عن الأبطال وعبادة البطولة، وذلك برغم مخالفته لكارلايل، والإنسان فى كثير من الأحيان يفيد من مخالفيه فى الرأى أكثر مما يفيد من الذين يوافقونه على آرائه وينزلون على أحكامه، وقد تناول كل منهما الموضوع من الناحية الملائمة لشخصيته ومزاجه الخاص ولون ثقافته، وفى اعتقادى أن الكتابين، كتاب الأبطال وعبادة البطولة الذى كتبه إمرسن يكمل كل منهما الآخر ويلقيان الكثير من الضوء على التاريخ وفلسفته.



مطابع الهيئة المصرية العامه للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥١٥٢

I.S.B.N 977-01-3919-x

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب